

بأمرهم⁽¹⁾. ويؤمن الناس في الصلوات الخمس، غير أن المنصور انقطع عن تلك الإمامة بعد أشهر من خلافته⁽²⁾. وكان الخلفاء يعلنون الجهاد على أعداء الدين.

وكان خلفاء هذه الفترة يهيمنون على شؤون الحكم ويشرفون على دقائق الأمور، فيقودون الجيوش في المعارك الهامة ويعيّنون قادة الجيوش في المعارك الصغرى، ويولّون الوزراء والولاة والقضاة والعمال⁽³⁾، ويستقبلون رسل الملوك⁽⁴⁾، ويشرفون على أعمال البناء حتى بعد انتداب لجان للقيام بها⁽⁵⁾. ويسيّرون أمور الدولة بمركزية مستحكمة⁽⁶⁾، فلا يقوم الموظفون بعمل إلا بعد استشارة الخليفة⁽⁷⁾، ويحيطونه علماً بكل ما يحدث⁽⁸⁾. وكان الخلفاء يتعقبون أرباب الوظائف ويسألون الرعية أو يسمعون منها عن أحوال أولئك الموظفين⁽⁹⁾، ويستدعون من بعد إلى الحضرة لاستطلاع أحوالهم⁽¹⁰⁾، وعندما يقومون بحملة يتفقدون أحوال العمال في المناطق التي يمرون عليها⁽¹¹⁾.

وبالرغم من إشراف الخلفاء المباشر فقد استبد بعض أرباب الوظائف فكثرت

(1) المعجب ص 255، 279، الكامل ج 11 ص 292، نهاية الأرب 215.

(2) المعجب ص 285.

(3) أنظر الفصول الثلاثة.

(4) المن بالإمامة صفحة 369، البيان المغرب ج 3 ص 78، 219، 386.

(5) راجع رسائل موحدية ص 97-98، المن بالإمامة ص 138-139، البيان المغرب ج 3 ص 107، 126.

(6) راجع رسائل موحدية ص 13، المن بالإمامة ص 285-286، الكامل ج 11 ص 468 البيان المغرب ج 3 ص 183.

(7) أنظر المن بالإمامة ص 390، البيان المغرب ج 3 ص 103.

(8) المصدر الأخير ص 118.

(9) المعجب ص 285-286، المن بالإمامة ص 178، 420.

(10) المن بالإمامة ص 182، 187، 206، 394-395، 448.

(11) المصدر ذاته ص 178، البيان المغرب ج 3 ص 131، 181، 188، 200.

امتحانهم ونكباتهم⁽¹⁾. وقد ساعد على تنفيذ خلفاء هذه الفترة أن الفكرة المهدية كانت غضة في نفوس أهلها، وكانت شخصيات الخلفاء قوية ونافذة وعلمهم غزيراً⁽²⁾، وتجربتهم واسعة، فما تولى الخلافة أحدهم إلا بعد أن عمل في الولايات أو الإدارة المركزية، فقد تولى يوسف بن عبد المؤمن إشبيلية وكان مسؤولاً عن الأندلس فترة غير يسيرة (551-558 / 1156-1162)⁽³⁾، وصرف يعقوب بن يوسف أعباء الوزارة في حياة أبيه (573-580 / 1177-1184)⁽⁴⁾، وعمل محمد بن المنصور تحت إشراف والده آخر عام في حياة المنصور (594-595 / 1197-1198)⁽⁵⁾.

وفي الثلث الأخير من حياة الناصر بدأ استبداد الوزراء بالأمور فكان الوزير أبو سعيد عثمان بن جامع يصرف الأعمال دون علم الناصر أو استشارته. ولما استخلف المستنصر صغيراً استبد أعمامه وأشياخ الموحدين بسلطاته ومعه بدأت مرحلة ضعف الخلفاء وتنفيذ الأشياء والوزراء واستمرت إلى دخول المأمون مراکش (627 / 1229)، وامتدت مع يحيى بن الناصر حتى قتل سنة 633 / 1236⁽⁶⁾. وبالرغم من ضعف خلفاء هذه الفترة فقد حاولوا أن يستردوا سلطاتهم، غير أن محاولاتهم كانت قليلة وغير مثمرة⁽⁷⁾.

ومع المأمون وتعاقب خلفاء أقوياء من بنيّه، بدأت محاولات الخلفاء الجديدة لاستعادة سلطاتهم. وأراد المأمون أن يطهر الدولة من الأشياء

(1) راجع الفصل القادم قسمي الوزراء والعمال.

(2) راجع المن بالإمامة ص 232، المعجب 237-239، 278-280، الكامل ج 12 ص 145-146.

(3) البيان المغرب ج 3 ص 138، نهاية الأرب ص 223، 228.

(4) البيان المغرب ج 3 ص 34.

(5) أنظر الملحق الثالث «جدول الوزراء».

(6) البيان المغرب ج 3 ص 211.

(7) راجع قسم «المجالس الاستشارية» من هذا الفصل والفصول الثلاثة القادمة عن استبداد الأشياء والوزراء وأثر ذلك في الإدارة الموحدية.

(8) أنظر البيان المغرب ج 3 ص 318-320، روض القرطاس ص 161.

المستبدين، فقتل أشياخ هنتاة وأهل تينملل وجميوة، وقد كانوا المتحكمين في سياسة الدولة في عهد ضعف الخلفاء، ويبدو أن المأمون أراد أن يسقط شرعية وجودهم من الدولة، فأسقط رسوم المهدي⁽¹⁾.

وقد أدت سياسته هذه إلى تقلص أراضي الدولة، ففقد إفريقية والأندلس، وانقسم المغرب الأقصى بين خليفتين، إلا أن المأمون كان المسيطر على القسم الأكبر منه. وأغلب الظن أنه استبدل أشياخ الموحيدين من تلك القبائل بأشياخ من هسكورة ومن شايعة من الروم وعرب الخلط، إذ كانت هذه العناصر هي المتنفذة في أيامه ويسعها استخلف ابنه الرشيد وسيطروا عليه عامين، ولما تمكن الرشيد من مقاليد الأمور بطش بالخلط وهسكورة⁽²⁾، وتقرّب إلى أشياخ جدميوة وهنتاة وأهل تينملل، وأعاد رسوم المهدي إرضاء لهم⁽³⁾. ولكن الرشيد وخلفاءه السعيد والمرتضى وأبا دبوس الواصل، كانوا في صراع مستمر مع أشياخ العرب والموحيدين⁽⁴⁾، فعادت للخليفة سلطاته ولكن رقعة حكمه كانت صغيرة، وكل يوم في نقصان، إما بانضمام مناطق إلى حفصبي تونس، أو بني مرين. ولئن استعاد خلفاء هذه الفترة سلطاتهم وكبحوا جماح العناصر المستبدة بالأمر في عهد أسلافهم خلفاء فترة الضعف فسلطتهم كانت في دولة صغيرة لم تكن هي دولة خلفاء عصر الازدهار.

إذن فقد مرت سلطة الخليفة الموحيدي بأربعة أطوار ففي طور التأسيس كان الخليفة مقيداً بتنظيمات الموحيدين، وفي عصر الازدهار كان مطلق اليد وفي بداية طور الانحلال استبدت عناصر الدولة بمقدرات الخلافة، غير أن الأمر

(1) البيان ج 3 ص 267-268، روض القرطاس ص 167-168، العير ج 6 ص 530، الإحاطة ج 1 ص 420-419.

(2) البيان المغرب ج 3 ص 398-303، العير ج 6 ص 537.

(3) المصدران ذاتهما ج 3 ص 305، ج 6 ص 533.

(4) راجع البيان المغرب ج 3 ص 298، 325، 326، 328، 331، 341، 363-365، 370-367، 379-386، 407-410، 422، 431-433، العير ج 6 ص 537، 538، 539، 543، 548.

اختلف ابتداء من المأمون. ولما عادت للخلفاء سلطاتهم نتيجة نضالهم ضد العناصر المتنفذة كانت الدولة قد تقلصت وانحصرت في أرض ضيقة تشاركهم فيها قوة جديدة هي قوة بني مرين.

أهل الدار (الحاشية الخاصة):

لا يسع الدارس لنظام الخلافة إلا أن يشير إلى دور حاشية الخليفة الخاصة، وعلى الرغم من أن تلك الحاشية لم تكن من نظم الدولة، ففي كثير من دول الإسلام في العصور الوسطى لعبت دوراً في توجيه شؤون الحكم، لا سيما في فترات ضعف تلك الدول. فما دور الحاشية الموحدية؟

من الثابت أن المهدي ابن تومرت اتخذ حاشية خاصة سماها أهل الدار. واحتل أهل الدار «الطبقة السادسة» في أصناف الموحيدين في رواية اليسع⁽¹⁾، الأمر الذي يوحي بأن اليسع اعتبرهم جزءاً من تنظيمات الموحيدين، غير أن رواية كتاب الأنساب تذكرهم قبل أصناف الموحيدين، فكأن الراوية أراد أن يقول أنهم صنف خاص، وليس من التنظيمات ولا سيما وأنه يقول أن واجبه هو خدمة الإمام المهدي ليلاً ونهاراً⁽²⁾. ويؤيد رأيه هذا ما يرويه عبد الواحد المراكشي عن أعباء أبي محمد وسنار، أحد أهل دار المهدي، فيقول المراكشي أن المهدي اختصه بخدمته «لما رأى منه شدته في دينه وكنمائه لما يرى ويسمع، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج من بين يديه»⁽³⁾. وهذا النص فضلاً عما يوضحه من واجبات أهل الدار يشير إلى أن المهدي كان يتوخى في أهل داره صفات خاصة. ويبدو أن بعض أهل الدار كان يقوم بمهام إدارية وعسكرية ودعائية هي من اختصاص أهل الجماعة حتى وهم بعض الرواة وذكر من يقوم بتلك الأعباء بين أهل الجماعة⁽⁴⁾. وأغلب الظن أن

(1) نظم الجمان ص 33.

(2) أخبار المهدي ص 29.

(3) المعجب ص 338.

(4) راجع الملحق الثاني «أهل الجماعة».

اختصاصهم الأساسي كان خدمة المهدي الخاصة، ولا سيما وأن ثلث أهل الدار العشرين كانوا من هرغة قبيلة المهدي، وكان فيهم أخوا المهدي عيسى وعبد العزيز⁽¹⁾ والراجح أن المهدي كان يختص بعض أهل داره بخصوصيات أكثر من غيرهم مثل أبي موسى الصودي وأبي محمد وسنار وأبي محمد عبد العزيز الغيثاني وعبد الواحد الشرقي وعبد الكريم أفعوا، ولم يكن جميع أهل الدار في مرتبة واحدة⁽²⁾. وإذ لم فقد كان أهل دار المهدي يقومون بخدمته الخاصة وقد يشترك بعضهم في الأعمال العامة.

ولم تذكر هذه الهيئة مع عبد المؤمن، والراجح أن عبد المؤمن أهمل الهيئة كتنظيم واستفاد من رجالها في أعماله وفق خطته في تغيير التنظيمات الموحدية، فقد ظهر ولاية وقادة في مرحلة التأسيس كانوا من أهل دار المهدي مثل عبد الواحد الشرقي وإبراهيم بن جامع وعبد العزيز وعيسى أخو المهدي والشيخ أبي محمد يصلان⁽³⁾، ومن شاقق منهم عبد المؤمن بعد استقرار الدولة نكبه وقتله، وقد سبقت الإشارة في غير موضع من هذه الدراسة إلى ثورتي أخوي المهدي، أما من ظل على ولائه للخليفة فقد توارث بنوهم مكانة رفيعة في ظل الخلفاء المتعاقبين مثل بني عبد الواحد الشرقي وإبراهيم بن جامع⁽⁴⁾، فهل يعني ذلك أن عبد المؤمن لم يتخذ حاشية خاصة؟

إن المصادر المتوفرة حتى الآن لا تعطي معلومات عن نشأة البلاط الموحي وتركيبه، ومن الراجح أن ذلك البلاط لم يبدأ يتخذ شكله في حياة عبد المؤمن، إذا اتسم عهد عبد المؤمن بالبساطة، وربما بدأ بالتكون في عهد يوسف وأخذ صورته النهائية في أيام المنصور، ومع المنصور كان خواص الحشم

(1) أنظر أسماء أهل دار المهدي حسب رواية كتاب الأساب في أخبار المهدي ص 29.
(2) أخبار المهدي ص 29، نظم الجمان ص 33.

(3) البيان المغرب ج 3 ص 20، الحلل الموشية ص 102، الجبر ج 6 ص 478-479.
(4) المن بالإمامة ص 238-237، الحلة السيرة ج 2 ص 241-239، 293، البيان المغرب ج 3 ص 59-58، 65.

يخرجون معه إلى الصلاة⁽¹⁾. ثم في أيام يوسف بدأ اتخاذ العبيد حجاً⁽²⁾.

ومن المفيد تتبع دور الحرير والجواري والعبيد في تسيير دفة الحكم، ولقد قام الحرير بدور كبير في توجيه السياسة في دولة المرابطين منذ حكم يوسف بن تاشفين⁽³⁾، غير أن دولة الموحدين سلمت من تدخل النساء في طوري تأسيسها وازدهارها⁽⁴⁾. وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى تعصب الموحدين الديني في بداية أمرهم. ولكن هناك بعض الإشارات عن تدخل النساء في دور الانحلال. إن حباية الرومية زوجة المأمون وأم الرشيد هي التي كتبت وفاة زوجها، وسعت في بيعة ابنها بما بذلت من أموال على كبار القواد وخاصة بني جنسها من الروم⁽⁵⁾، وربما كانت تسيير سياسة ابنها الرشيد، فهي التي استدعت ابنها من إحدى الغزوات لما توالى جيوش خصمه يحيى بن الناصر على مراكش⁽⁶⁾. ويبدو أنها كانت متنفذة حتى أن السعيد لما خلف أخاه الرشيد حبسها وأغرمها مالا⁽⁷⁾. وأغلب الظن أن السعيد نفسه كان واقعاً تحت تأثير أخته عزونه إذ أن المرتضى لما تولّى الخلافة سجنها وأغرمها مالا كثيراً وحلياً خطيراً⁽⁸⁾.

وعلى الرغم من أن بعض خلفاء الموحدين اتخذوا الجواري، وعكفوا على الملذات وعقدوا مجالس اللهو والشرب بعد العقاب فلا تسمع عن تدخل

(1) المعجب 244، البيان المغرب ج 3 ص 141.

(2) المعجب ص 343.

(3) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) ج 4 ص 57، 97، الإحاطة ج 1 ص 455.

(4) لقد روي أن زينب أخت المهدي ابن تومرت كانت بين القلة التي علمت أمر وفاته (أخبار المهدي ص 81 نظم الجمان ص 130) ولم يذكر أنها سعت أو اشتركت في بيعة عبد المؤمن ويبدو أنها كانت تحضر مجالس المشاورة التي كان يعقدها كبار الموحدين قبل إعلان الوفاة لأنها كانت تتم في بيت ابن تومرت (الجبر ج 6 ص 472) ولكن لم يرد أنها اشتركت في المناقشات.

(5) البيان المغرب ج 3 ص 282، روض القرطاس ص 170، الإحاطة ج 1 ص 425.

(6) البيان المغرب ج 3 ص 291-290.

(7) المصدر ذاته ج 3 ص 359.

(8) المصدر ذاته ج 3 ص 390.

الجواري في شؤون الحكم أو استخدامهم من قبل المجموعات المتصارعة للسيطرة على الخلفاء أو التخلص منهم، إلا ما يرويه صاحب روض القرطاس في مقتل الناصر، إذ يقول في إحدى رواياته أن وزراء الناصر لما أرادوا الخلاص منه دسوا إليه من يسمه من جواريه⁽¹⁾.

إذن لم يلعب النساء دوراً كبيراً في حياة دولة الموحدين السياسية. وقد يرجع ذلك إلى نظرهم الدينية المتعصبة وربما خاف الخلفاء والمتنفذون أن ينسب إليهم أنهم من أدوات النساء، وربما لم يقصد السعيد والمرتضى بسجن وغرامة حباية وعزونة إلا الإساءة إلى سلفيهما.

أما العبيد فقد كان لهم دور كبير في الدولة. وقد اتخذ الخلفاء حجابهم من بينهم، إذ لم يرد اسم حاجب إلا وكان مولى خصياً⁽²⁾. وقد زعم ابن خلدون أن اسم الحاجب لم يكن معروفاً في دولة الموحدين⁽³⁾. وهذه رواية لا تجد سنداً من الروايات المعاصرة التي تقطع بأن الحاجب عرف منذ حكم يوسف بن عبد المؤمن⁽⁴⁾. وقد عرفت الحجابة في عهد ابن تومرت وكان أبو محمد وسنار يقوم بها ولكنه لم يسم حاجباً، ولم يرد ذكر حاجب مع عبد المؤمن⁽⁵⁾. فإن صحّت رواية ابن خلدون على فترة المهدي وعبد المؤمن فهي لا تنطبق على حال الدولة بعد ذلك.

وهنا يجب التمييز بين الحاجب والوزير لأن بعض المصادر المتأخرة أطلقت الحاجب على الوزير أحياناً، ولا سيما وأن الوزراء كانوا يقومون ببعض

(1) روض القرطاس ص 160.

(2) المعجب ص 244، 261، 263، 311، 324، البيان المغرب ج 3 ص 141، 283.

(3) الجبر ج 1 ص 432.

(4) راجع من هذا الفصل ص 141 تعليق 2 والمصادر المذكورة في تعليق رقم (2) من هذه الصفحة.

(5) يرى هوبكنز أن أبا محمد وسنار ربما كان حاجباً لعبد المؤمن كما كان مع المهدي لأنه تولى قبريهما بالحراسة بعد وفاتهما (Hopkins p. 16) وهذا رأي لم نجد في المصادر ما يؤكده.

واجبات الحاجب مثل الإذن بالدخول بين يدي الخليفة⁽¹⁾. وهذا مما يجعل المرء في حيرة بالنسبة لوظيفة الحاجب الموحد، وربما لم يكن الحاجب الموحد إلا حارساً لباب مجلس الخليفة، وربما كان يسمح للناس بالدخول بإذن من الوزير، والذي يدعو إلى القول بهذا الرأي هو أن الحاجب كان شيخ العبيد أو قائدهم⁽²⁾. ووجد الحجاب في اضطراب أحوال الدولة في دور الانحلال فرصة عظيمة، فتمكنوا وتنفذوا وتدخل بعضهم في تعيين الخلفاء⁽³⁾.

ويدل على عظم سيطرة بعضهم على الخلفاء قول ابن عذاري عن صاحب يحيى بن الناصر: «وكان المتولي على باطن يحيى والحاجب له والناظر عليه والكافل لأموره والضابط لنفقاته والمرجوع إليه في مصالحه وداره وحرمة ومملكته على تقلصها فتى اسمه بلال يكنى أبا حمامة» وتولى الكتابة بالعلامة في الظواهر بمداد الخلفاء الأحمر⁽⁴⁾. وكان أبو المسك حاجب السعيد مسيطراً على كثير من أموره حتى أن المرتضى اضطر لنكته لما تولى الخلافة اتقاء شره⁽⁵⁾.

ولم يشهد دور الانحلال تدخل الحريم واستبداد العبيد وحدهم، فقد ظهر المنجم في حاشية الخلفاء ابتداء من حكم السعيد، غير أن أمره قد يسمع حيناً وقد يخالف حيناً آخر⁽⁶⁾. ولم يتعرض هذا الفصل للحاشية بمعنى الندماء من شعراء وأطباء ومستشارين لأن هؤلاء لم يسموا في الرسوم الموحدية حاشية بل كانوا ضمن المجالس الاستشارية للخلفاء ولهذا سيبحث في دورهم في دراسة تلك المجالس.

من كل ما سبق يتضح أن الخلافة الموحدية كانت تتميز بطابعها الديني المهدوي ونظامها مرّ بأطوار مختلفة حسب الظروف المحيطة بالخليفة، وخضع

(1) راجع الفصل القادم - فقرة الوزراء.

(2) البيان المغرب ج 3 ص 359، 389، 390.

(3) المصدر ذاته ج 3 ص 359.

(4) البيان المغرب ج 3 ص 319-320.

(5) المصدر ذاته ج 3 ص 390.

(6) المصدر نفسه ج 3 ص 370، 386.

اختيار الخلفاء وسلطاتهم لتلك الظروف، وحتى في طور الازدهار الذي تميز بخضوع نظام الخلافة لنسق واحد، وكانت فيه سلطة الخلفاء مطلقة، فقد قامت المجالس الاستشارية الموحدية بدور غير يسير. فما تلك المجالس وما دورها؟
المجالس الاستشارية:

كان خلفاء دور الازدهار بالرغم من سلطاتهم الواسعة في شؤون الدين والدنيا يستشيرون جماعات خاصة في مسائل معينة. وقد مرّ كيف تكونت المجالس الاستشارية في حياة المهدي، وكيف اكتسبت أهمية خاصة بعد وفاته حتى خشيها عبد المؤمن فبدّل التنظيمات الموحدية وأقام تنظيمًا واحدًا جديدًا هو هيئة أشياخ الموحدين. وقد تألفت الهيئة من الموحدين الأولين أولي السبق في الدعوة. وضم عبد المؤمن إليهم مجموعات جديدة لا سيما من كومية قبيلته. وبعد أن توسعت الدولة وضمت عناصر جديدة استوعبها عبد المؤمن في نظم الدولة، فظهرت هيئتان استشاريتان أخريان هما هيئة أشياخ العرب وهيئة أشياخ الأندلس. وفي خلافة يوسف بن عبد المؤمن كوّنت هيئة رابعة من «السادة» بني عبد المؤمن.

وكانت هيئة أشياخ الموحدين تتكوّن من أشياخ تلك القبائل التي قام عليها الأمر وأشياخ كومية وهسكورة وصنهاجة، وتوارث أبناؤهم مكانتهم. وأما هيئة أشياخ العرب فقد تكوّنت من زعماء العشائر الهلالية التي «وحدّت». ولم ترد أي إشارة أن أية خليفة في طور الازدهار تدخل في اختيار أشياخ تلك القبائل. وأما في طور الانحلال فإن كانت القبيلة موالية فكثيراً ما يقر الخليفة شيخها على رئاستها، وإن كانت معادية فأقرار شيخ القبيلة على رئاستها يتم بين أبناء تلك القبيلة. ومن أسماء أشياخ القبائل يتبين أن مشيخة القبيلة كانت وراثية في أسرة بذاتها⁽¹⁾. وأما أشياخ الأندلس فقد تكوّنت هيئتهم من المنتزعين السابقين بالأندلس، مثل أبي محمد سيد رأى بن وزير وابن مردنيش⁽²⁾.

(1) راجع العير ج 6 ص 534، 542، 545، 546.

(2) المن بالإمامة ص 218، 399-400، البيان المغرب ج 3 ص 85.

وكانت مشورة هذه الهيئات تنحصر في المسائل العسكرية وقد تشاور كل مجموعة بمفردها⁽¹⁾ أو في اجتماع يضم الهيئات الأربعة⁽²⁾. وغالباً ما ينفذ الخليفة ما يشيرون به⁽³⁾. ولم يكن نفوذ هذه الهيئات متساوياً ولا اختصاصها واحداً. ولم ترد استشارة أشياخ الأندلس إلا في قضايا بلدهم. أما أشياخ العرب فقد أخذ رأيهم في كل الأعمال العسكرية التي اشتركوا فيها، وجرت مشورة بشأنها.

وليس هناك ما يؤكد على أن وجود هاتين الهيئتين كان مستمر أو دائماً، بينما وجدت هيئة أشياخ الموحدين وهيئة السادة وجوداً دائماً مستمراً، وتجاوز اختصاصها المسائل العسكرية إلى شؤون الأمن⁽⁴⁾ والإدارة⁽⁵⁾ والأموال العامة⁽⁶⁾. واشترك أشياخ الموحدين في الإدارة بصورة فعالة، ومنذ أن ولّى عبد المؤمن أبناءه الولايات بعث معهم أشياخ الموحدين وزراء وأشياخاً في الأحكام⁽⁷⁾، وغدا فعله ذاك تقليداً اقتدى به خلفاؤه⁽⁸⁾.

وقد سبقت الإشارة إلى أن رضى الأشياخ من الموحدين كان ضرورياً لتتم بيعة أية خليفة منذ تأسيس الدولة حتى سقوطها.

ومن مظاهر وجود هيئة أشياخ الموحدين المنتظم، أن الخلفاء كانوا يختارون رئيساً أو مزاوراً للأشياخ، وهو حلقة الوصل بينهم وبين الخليفة وينوب عنهم في البيعة الخاصة. وربما بدأت هذه الوظيفة مع عبد المؤمن وقبل فتح

(1) نظم الجمان ص 226، البيان المغرب ج 3 ص 113، 130، 198، 494، الحلل

الموشية ص 118، روض القرطاس ص 146، 147.

(2) المن بالإمامة ص 218-220، 498، 502، 507-508.

(3) المصدر ذاته ص 502، البيان المغرب ج 3 ص 80، 151.

(4) البيان المغرب ج 3 ص 173.

(5) المن بالإمامة ص 302.

(6) رحلة التيجاني ص 346.

(7) نظم الجمان ص 132.

(8) البيان المغرب ج 3 ص 111-112.

مراكش إذ ينفرد المراكشي ويسمي عمر أصناج أول وزير لعبد المؤمن وهو أمر غير ثابت⁽¹⁾. ولكن من المؤكد أن هذه الوظيفة أخذت مكانها بين الوظائف الموحدية بعد استقرار الدولة وتولأها عمر الهنتاتي في خلافة عبد المؤمن ثم يوسف⁽²⁾. وخلف عمر الهنتاتي ابنه أبو محمد عبد الواحد وظل في وظيفته تلك مع المنصور ثم الناصر⁽³⁾، حتى عينه الناصر في سنة 603 / 1206 والياً على إفريقية بسلطات استثنائية ليقتضي على ثورات الميورقيين وحلفائهم العرب والأغزاز في تلك المنطقة⁽⁴⁾. وخلف أبا محمد عبد الواحد على رئاسة أشياخ الموحدين ثلاثة نفر هم أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتي وأبو علي عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقي وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان من أهل تينملل. وهم الذين بايعوا المستنصر البيعة الخاصة نيابة عن أشياخ الموحدين⁽⁵⁾.

ولما أسقط المأمون رسوم المهدية انقطع وجود الهيئة. ولما أعاد الرشيد تلك الرسوم أصبح أبو عثمان سعيد بن زكريا الجدميوي المقدم على الأشياخ لأنه أول من رجع إلى الرشيد وسمى في إرجاع الآخرين⁽⁶⁾. إذن فقد كانت رئاسة أشياخ الموحدين في عهد الخلفاء الثلاثة الأول محصورة في أسرة عمر الهنتاتي، ثم بعد ذلك أصبحت لكل من يملك قلب الخليفة بدالة. وفي فترة الانحلال تولأها غير شخص في آن واحد⁽⁷⁾.

وأما هيئة السادة فقد كان لهم دار اجتماع خاصة تدعى «دار القرابة»⁽⁸⁾.

(1) أنظر الفصل القادم - فقرة الوزارة.

(2) المن بالإمامة ص 221، 232، البيان المغرب ج 3 ص 55، 59.

(3) المعجب ص 313.

(4) البيان المغرب ج 3 ص 225، رحلة التيجاني ص 362، الجبر ج 6 ص 583، تاريخ

الدولتين ص 18.

(5) المعجب ص 326.

(6) البيان المغرب ج 3 ص 293-294، الجبر ج 6 ص 533.

(7) الجبر ج 6 ص 537.

(8) البيان المغرب ج 3 ص 358.

ورئيسهم يلقب بـ «السيد الأعلى»⁽¹⁾. وكان يقوم بالبيعة الخاصة. وقد تولى رئاسة السادة في خلافة يوسف بن عبد المؤمن السيد عمر بن عبد المؤمن⁽²⁾، وفي خلافة المنصور السيد أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن⁽³⁾ وأما في خلافة الناصر فقد تولأها سيدان هما أبو زكريا يحيى بن عمر بن عبد المؤمن وأبو موسى عيسى بن عبد المؤمن، وهو آخر من بقي من ولد عبد المؤمن لصلبه⁽⁴⁾. وكانت في خلافة الرشيد من نصيب عمه السيد أبي محمد سعد⁽⁵⁾. وواضح أن هذه الوظيفة كانت في أسرة السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن في أغلب الأحيان.

وكانت درجتا كبير السادة ورئيس أشياخ الموحدين رفيعتين، وهما فوق درجة الوزارة إذ يجلس متولياًهما قرب الخليفة⁽⁶⁾، وربما يشير المراكشي إلى شيء من هذا عندما يقول أن عبد المؤمن رباً بقدر عمر أصناج عن الوزارة (؟) فولأها أبا جعفر ابن عطية، ورأى يوسف أن أخاه عمر أعلى من الوزارة فقلدها إلى ابن جامع⁽⁷⁾، وقد بينا أن الأول ربما كان أول رئيس لأشياخ الموحدين والثاني كان أول مزوار للسادة بني عبد المؤمن.

والى جانب هذه الهيئات الاستشارية كانت هناك هيئة استشارية عليا هي مجلس الخاصة⁽⁸⁾. ويستشار هذا المجلس في المسائل الكبرى. ويتكون من أكابر السادة وأشياخ الموحدين وشيوخ طلبة الحضر وخطيب الخلافة وقاضي الجماعة وفي حالات الحرب يضاف إليهم من يحضر الغزوة من الولاة وقضاة

(1) المن بالإمامة ص 250، 251، 252، البيان المغرب ج 3 ص 60.

(2) المن بالإمامة ص 221، البيان المغرب ج 3 ص 55.

(3) المعجب ص 265، 313، البيان المغرب ج 3 ص 141.

(4) المعجب ص 326.

(5) البيان المغرب ج 3 ص 286.

(6) المن بالإمامة ص 238، البيان المغرب ج 3 ص 286.

(7) المعجب ص 168، 244.

(8) المصدر ذاته ص 258.

الولايات الكبرى وأكابر أشياع العرب ولم يظهر هذا المجلس إلا ابتداء من خلافة يوسف بن عبد المؤمن⁽¹⁾.

ولم تتجاوز أية هيئة من هذه الهيئات نطاق الاستشارة إلى التنفيذ والتحكم والاستبداد في اتخاذ القرارات في خلافة عبد المؤمن بعد فتح مراكش أو في خلافة يوسف أو المنصور. وأغلب الظن أن أشياع الموحيدين بما نالوا من حظوة ودرجة رفيعة عملوا للاستعلاء على الناصر، وحتى يفسحوا المجال لتنفيذهم وتحكمهم بسياسة الدولة، سعوا في إبعاد رئيس أشياع الموحيدين الشيخ أبي محمد عبد الواحد الحفصي، وزينوا للناصر أهمية تعينه على إفريقية ليقتضي على الفتن فيها ففعل⁽²⁾، فسيطروا على أمور الحضرة في غيبتهم فنبههم الناصر قبيل موقعة العقاب⁽³⁾. فلم يخلص الموحدون في القتال في تلك الموقعة بسبب ما فعله الناصر بأشياعهم، فهم الخليفة ببطشة كبرى فعاجلوه قبل أن يعاجلهم⁽⁴⁾. ولما خلفه ابنه المستنصر استبدوا بالأمور دونه لصغر سنه⁽⁵⁾.

ولعل أخطر ما أصاب أشياع الموحيدين في هذه الفترة هو صراع أبناء القبيلة الواحدة على التنفيذ والتحكم والسيادة. وحسب المرء أن يشير إلى أن أبناء أبي حفص عمر الهنتاتي كانوا أعداء لأبناء عمومته بني يوجان، وكان كل فريق يدبر المكاييد لإبعاد خصمه عن مجال القيادة والسلطة. وقد علق ابن عبد المنعم الحميري على تلك الخصومة قائلاً: «وجعل الله تعالى بين هذين البيتين ما جعل بين بني هاشم وبني أمية»⁽⁶⁾.

وقد أثر هذا النزاع على هيئة السلطة المركزية، ولم يخلص المعارض

(1) راجع المعجب 258، المن بالإمامة ص 493-495، 502، البيان المغرب ج 3 ص 271.

(2) رحلة التجاني ص 360.

(3) البيان المغرب ج 3 ص 240-241.

(4) روض القرطاس ص 169.

(5) البيان المغرب ج 3 ص 243، روض القرطاس ص 160.

(6) الروض المعطار ص 70 وانظر عن هذه الخصومة روض القرطاس ص 69-70.

منهما النصيح للخليفة لما يتولى خصمه الوزارة أو القيادة العسكرية، ولا يطمئن الوزير أو القائد لمشورة خصومه.

وكان هذا من أهم أسباب نكبة العقاب⁽¹⁾. ولم يسمع المتنفذون من أشياع آراء خصومهم فقلّت فعالية الدولة في مواجهة خصومها في الداخل والخارج⁽²⁾.

ومنذ وفاة المستنصر انقسم أشياع الموحيدين إلى كتلتين متصارعتين كل واحدة منهما أرادت أن تستبد بالأمور وكل واحدة منهما استعانت بالعرب الهلالية. وكانت هنتاة وأهل تينملل وكدمية يمثلون تجمعاً واحداً واستعانوا بعرب سفيان⁽³⁾، وعارضتهم هسكورة وتحالفت مع عرب الخلط. فلما بايع تجمع هنتاة عبد الواحد بن يوسف، وقفت هسكورة وعرب الخلط مع العادل. فلما انضمت هنتاة إلى العادل خرجت عليه هسكورة⁽⁴⁾، وقتلوه وبايعوا المأمون⁽⁵⁾، ودخل مراكش بسعيهم⁽⁶⁾. ولما تبدل موقف الرشيد عن سياسة أبيه المأمون وقرب أشياع الموحيدين من هنتاة وحلفائها سحب ذلك تبدل في موقف هسكورة وعرب الخلط فانضموا إلى يحيى بن الناصر⁽⁷⁾.

وهكذا رافق تنفيذ الأشياع من الموحيدين والعرب انقسام بينهم خطير أفضى إلى انهيار السلطة المركزية وجعلها تحت رحمة هذه الجماعة أو تلك. وقد ساعدهم على السيطرة أن القوات العسكرية الأساسية للدولة كانت تتكون منهم، فأصبح الخلفاء رهن إشارتهم. ولا عجب بعد هذا أن يفكر المأمون في

(1) البيان المغرب ج 3 ص 241، روض القرطاس ص 157-158.

(2) أنظر مثلاً ما ينقله عنان عن مخطوط الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشي (عنان ق 2 ص 346) ويكفي أن نذكر بما أشرنا إليه آنفاً من أن المستنصر لم يخرج لقتال في مدة خلافته.

(3) الجبير ج 6 ص 568.

(4) المصدر ذاته ج 6 ص 528.

(5) البيان المغرب ج 3 ص 252، الجبير ج 6 ص 528-529.

(6) الجبير ج 6 ص 530.

(7) راجع البيان المغرب ج 3 ص 263، 288، 323، الجبير ج 6 ص 527، 528، 532، 534.

استجلاب الروم ليسند حكمه، ويعيد هيئته، وبلغى رسول المهديّة، ويقتل أشياخ الموحدين. ويبدو أن الامتيازات كانت هي محور الصراع بين المأمون وأشياخ الموحدين، فانظر كيف يصور ابن عذارى تلقي أشياخ الموحدين نبأ إعادة الرسوم في خلافة الرشيد إذ يقول: «فيا لله. ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح عند سماعهم وانطلاق ألسنتهم بالدعاء إلى الله تعالى في نصر خليفتهم وإعلاء أمره وتجديده، وشملت الأفراح الكبير منهم والصغير وعم الجذل الحاضر والبادي»⁽¹⁾.

غير أن استعادة الرسوم والامتيازات لم تكن أن أولئك الأشياخ وجدوا السلطة التي تمتعوا بها أيام ضعف الخلفاء فقد كان الرشيد يتبعهم ويبطش بمن يحاول السيطرة وخاصة العرب⁽²⁾، وسار السعيد على هداية⁽³⁾ ففرت جماعات منهم لا سيما من هنتاة وكدمية إلى حفصبي تونس⁽⁴⁾. وأصبح وجود الهيئات الاستشارية غير منتظم.

ومن خلال سير أحداث الدولة يلاحظ أن الهيئات التي بدأت استشارية مع الخلفاء الأقوياء استبدت بالأمور في أيام الضعف ولما تعاقب خلفاء أقوياء تبدد شمل هذه الهيئات.

(1) البيان المغرب ج 3 ص 305.

(2) أنظر العبر ج 6 ص 537.

(3) البيان المغرب ج 3 ص 363-364، العبر ج 6 ص 538.

(4) المصدران ذاتهما ج 3 ص 368-370، ج 6 ص 539.

الفصل الرابع الجهاز الإداري

من المفيد التمييز بين نوعين من الإدارة الموحدة: الإدارة المركزية والإدارة الإقليمية، وذلك لأن النوعين اختلفا في نشأتها والتغيرات التي طرأت عليهما، فبينما بدأت الإدارة المركزية بنظم قليلة تكاثرت مع مر الزمن نتيجة الحاجات العملية والتأثر بنظم البلاد المفتوحة، كانت الإدارة الإقليمية وريثة نظم الولايات المفتوحة التي تفاوتت باختلاف المناطق. فإدارة المرابطين في المغرب الأقصى والصنهاجيين في المغرب الأوسط والأدنى كانت بسيطة في شكلها، بينما كانت إدارة الأندلس معقدة وكثيرة النظم وواضحة الاختصاصات لأنها نتيجة تطور منذ أيام الفتح الأولى، واستقرت على نظام ثابت على عهد أموي قرطبة، وحافظ ملوك الطوائف ثم المرابطون في الأندلس على ذلك الهيكل الإداري في شكله العام، وأقر الموحدون تلك النظم في البلاد التي فتحوها ثم عدّلوها.

الإدارة المركزية:

كان على قمة الإدارة وزير هو حلقة الوصل بين الخليفة ومختلف نظم الدولة التي تكونت من دواوين الكتابة والعسكرية والمالية.

الوزارة:

لم يذكر الرواة أن ابن تومرت اتخذ وزيراً وإنما كان يختص «العشرة أهل الجماعة» بالمشورة في الأمور العظام. ولم يطلق مؤرخ على هؤلاء «العشرة لقب

الوزراء غير ابن القطان⁽¹⁾، وقد لا تعني كلمة «وزراء» إلا كلمة «مستشارين» إذ لم ترد في المصادر المعاصرة الأخرى، وابن القطان نفسه لم يذكرها إلا في موضع واحد، ويبدو أنه كان يتجاوز في إطلاق المصطلحات، فقد سمى أشياخ الموحدين الذين بعثهم عبد المؤمن مع أبنائه لما ولّاهم الولايات وزراء⁽²⁾ الأمر الذي لا تؤكد الروايات الأخرى.

وقد بدأت مؤسسة الوزارة تتخذ مكانها بين نظم الدولة في خلافة عبد المؤمن، ولكن المعلومات عن أوليتها مضطربة ومتناقضة. ويذكر بعض المؤرخين أن عبد المؤمن اتخذ وزيراً قبل فتح مراكش، فالبيدق يقول أن الوزير - ولا يذكر اسمه - أشرف على جمع غنائم مراكش لما فتحت⁽³⁾، ويقول المراكشي أن عبد المؤمن استوزر أبا حفص عمر أصناج «إلى أن استقر الأمر واستقل عبد المؤمن، فأجلى أبا حفص عن هذه الوزارة ورباً بقدره عنها إذ كان عندهم فوق ذلك، واستوزر أبا أحمد (كذا) بن عطية فجمع الوزارة والكتابة»⁽⁴⁾. إن عمر أصناج توفي عام 537 / 1141⁽⁵⁾ قبل فتح مراكش بأربع سنين وابن عطية لم يستكتب إلا بعد القضاء على الماسي في أواخر 542 / 1148⁽⁶⁾، والمصادر الأخرى لم تذكر وزيراً قبل ابن عطية⁽⁷⁾. والراجح أن كلمة وزير قبل ابن عطية أطلقت على رئيس أشياخ الموحدين الذي هو عمر أصناج ثم خلفه عمر الهنتاتي. ولا يستطيع أحد أن يقطع بأن عبد المؤمن أطلق عليه لقب وزير، وأغلب الظن أن أول وزير كان ابن عطية الذي استكتب أواخر 542 أو أوائل

(1) نظم الجمان ص 74.

(2) المصدر ذاته ص 132.

(3) أخبار المهدي ص 106-105.

(4) المعجب ص 198.

(5) Huici; v. 1, p. 103.

(6) المن بالإمامة ص 224، الحلة السيرة ج 2 ص 238، البيان المغرب ج 3 ص 183،

روض القرطاس ص 125، 134، المعبر ج 6 ص 493، 496.

(7) المن بالإمامة ص 224، البيان المغرب ج 3 ص 56، روض القرطاس ص 134.

543 / 1148، ثم رقي إلى رتبة الوزارة⁽¹⁾، وهكذا ظهرت رتبة الوزارة واستمرت حتى نهاية الدولة الموحدية بالمغرب⁽²⁾.

ولئن اتخذ الخلفاء وزراء فهل تعدد الوزراء في وقت واحد؟ يرى ابن خلدون أن الموحدين سمو الوزير حاجباً مقلدين أمويي قرطبة⁽³⁾، وتوكلت عدد من الدارسين على إشارة ابن خلدون هذه وقالوا بتعدد الوزراء ورئاسة وزير حاجب⁽⁴⁾. وقد سمت بعض المصادر المشرقية وبعض المصادر المغربية المتأخرة عن فترة الموحدين الوزير حاجباً⁽⁵⁾. ولم ترد الكلمة في المصادر المعاصرة للفترة الموحدية ولا سيما عند البيدق وابن صاحب الصلاة والمراكشي وابن القطان، بل إن ابن صاحب الصلاة يقول عن وزارة السيد أبي حفص عمر لأخيه يوسف «وتوالى استبداد السيد أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بانقياد الأوامر السلطانية على أمره على ما كان عليه عند أبيه»⁽⁶⁾. ومن الثابت أن الخلفاء في دور الازدهار لم يتخذوا غير وزير واحد في وقت واحد، وأما في دور الانحلال فقد اتخذ يحيى المعتصم والسعيد وزيرين، ولا يعرف الحال مع المأمون والمرتضى والواثق⁽⁷⁾. ويبدو أن اضطراب المعلومات عن الوزارة في

(1) المن بالإمامة ص 224، البيان المغرب ج 3 ص 56، روض القرطاس ص 134.

(2) راجع الملحق الثالث: ثبت الوزراء.

(3) المعبر ج 1 ص 429-430.

(4) أشياخ ص 485، عنان ق 2 ص 621.

(5) سمي ابن الأثير السيد أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حاجب أبيه ثم أخيه (الكامل ج 11

ص 291 وانظر أيضاً النوري: نهاية الأرب ص 217) فالمشاركة ربما نقلوا عن رواية

أندلسي كان متأثراً بما كان سائداً في بيئته، ويسمي ابن عذارى أبا حفص عمر بن عبد

المؤمن مرة حاجباً (البيان المغرب ج 3 ص 140) بعد أن سماه وزيراً من قبل (البيان

المغرب ج 3 ص 58-59). ويكثر صاحب روض القرطاس من إطلاق لفظة حاجب على

الوزير (راجع روض القرطاس ص 135، 153) وابن عذارى وصاحب الروض متأخران

وكتبا في العصر المريني.

(6) المن بالإمامة ص 237، البيان المغرب ج 2 ص 58-59.

(7) راجع الملحق الثالث.

دور الانحلال يعود إلى أن المتنفذين كانوا غير واحد، والناس منذ عصر ملوك الطوائف تجاوزوا في تحلية الناس بلقب الوزير⁽¹⁾، ويقول المقري نقلاً عن ابن سعيد المغربي في المغرب أن اللقب صار عاماً «لكل من يجالس الملوك ويختص بهم»⁽²⁾. ومن ذلك عدة أمثلة في العصر الموحد⁽³⁾. وعلى هذا فربما صنف مؤرخو العصر المريني كل متنفذ من الأسيان بين الوزراء.

كان الخليفة يختار وزيره إلا أن موافقة أسيان الموحدين كانت ضرورية إذ أن الوزير كان ينقل أوامر الخليفة إلى الأسيان وعليه فلا بد من ثقتهم فيمن يتقلدها⁽⁴⁾. وعزل عبد المؤمن وزيره عبد السلام الكومي وولّى ابنه السيد أبا حفص الوزارة برأي أسيان الموحدين⁽⁵⁾.

ويبدو أن موافقة الأسيان لم تصبح ضرورية بعد استقرار الخلافة فقد ظل أبو سعيد عثمان بن جامع وزيراً على الرغم من شكوى الأسيان منه في خلافة الناصر ثم المستنصر⁽⁶⁾.

وفي فترة تسلط أسيان الموحدين (610-622 / 1213-1224) أصبح تعيين الوزراء يتم بإيعاز من المتنفذين من الأسيان⁽⁷⁾. ولما استرد الخلفاء سلطاتهم،

(1) الإحاطة جـ 1 ص 328-329.

(2) نفع (ط. الرفاعي) جـ 2 ص 99.

(3) لقد أطلقت كلمة وزير على الطبيب وشيخ القبيلة والكتاب وبعض كبار أسيان الموحدين وبعض الولاة (راجع اختصار القذح ص 98، البيان المغرب جـ 3 ص 183، روض القرطاس ص 142، العبر جـ 6 ص 549) ومثل هذه الإشارات جعلت بعض الدارسين لا يميز بين من تقلد الوزارة أو من أضيف إليه الكلمة تشريفاً وتعظيماً، وعلى سبيل المثال قابل قائمة هوبكنز عن وزارة الموحدين (Hopkins pp. 153-155) بالملحق الثالث من هذه الدراسة.

(4) المن بالإمامة ص 237، البيان المغرب جـ 3 ص 59.

(5) المن بالإمامة ص 177-178.

(6) العبر جـ 6 ص 525، الروض المعطار ص 68.

(7) المصدران ذاتهما جـ 6 ص 525، ص 67.

منذ خلافة المأمون، انفرد الخلفاء بتعيين وزرائهم إلا في أيام الرشيد الأولى حيث آخر الرشيد وزيراً بأمر شيخ متنفذ⁽¹⁾.

وكان وزراء الدولة الموحدية إما من السادة بني عبد المؤمن أو من أسيان الموحدين لا سيما أولئك الذين ربطتهم صلة القرى أو النسب ببني عبد المؤمن⁽²⁾، ولا استثناء لهذه القاعدة إلا تعيين أول وزير موحدى وهو أبو جعفر أحمد بن عطية. فقد كان ابن عطية كاتباً مرابطاً وصهراً لبني يوسف بن تاشفين، فاستكتبه عبد المؤمن مدة يسيرة، ثم عينه وزيراً، واستمر في منصبه من 542 أو 543 إلى 552 / 1148-1158. ويبدو أن است كتابه ثم استيزازه كانا بسبب من مؤهلاته الإدارية⁽³⁾.

وواضح أن تلك الفترة التي كان فيها ابن عطية كاتباً ثم وزيراً هي الفترة التي بدأ فيها عبد المؤمن ينظم إدارة دولته الوليدة فاحتاج إلى أصحاب الخبرة الإدارية. وأما خلف ابن عطية فقد كان عبد السلام الكومي وهو أخو عبد المؤمن لأمه، وقد جاء استيزازه عقب إعلان الحكم الوراثي وما رافقه من تدمير، فربما أراد عبد المؤمن أن يكون وزيره من عصبته حتى يطمئن إلى تنفيذ قراراته، ولكن عبد السلام اعتمد على قرابة عبد المؤمن له واستعلى على الموحدين وأبناء عبد المؤمن نفسه، فجأروا بالشكوى فزل بالسيد أبي حفص بن عبد المؤمن⁽⁴⁾. ومن بعد ذلك كان الخلفاء كثيراً ما يعينون الوزراء من السادة بني عبد المؤمن أو من أسيان الموحدين الذين لعبوا دوراً في بيعتهم أو سعوا في توطيد حكمهم. فالوزارة لا يتقلدها إلا أهل ثقة الخليفة الأمر الذي يدل على أهمية هذه الرتبة في نظم دولة الموحدين.

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 289.

(2) راجع الملحق الثالث.

(3) المعجب ص 198، 199، أعتاب الكتاب ص 226، البيان المغرب جـ 2 ص 27-26،

الإحاطة جـ 1 ص 272-271.

(4) المن بالإمامة ص 174-177.